

الكندى و آراؤه الفلسفية

للدكتور عبد الرحمان شاه ولى

لم يكن عند العرب قبل الاسلام شىء ، يعول عليه من الفلسفة سوى بعض الفضائل الاخلاقية مثل الشجاعة والمروءة والسخاء ، وكان لديهم الى جانب ذلك بعض الحكم والمواعظ ، وشىء من الحكمة المنزلية والمدنية مثل بعض العادات القومية و التقاليد القبلية .

وكان لهم في جاهليتهم دين غليظ مثل ياتهم الجافة الساذجة ، فقد كان دين اكثرهم الساحقة هو الوثنية الساذجة التي لم يكن اعتناقهم اياها نتيجة الفكر والروية والتعقل ، انما كانت اخلاطا ورثوها عن آباؤهم جيلا بعد جيل دون أن تفكر فيها عتولهم أو تمتزج بقلوبهم ، فلم يغيروا منها شيئا ، ولم يحاولوا تجديدها أو تهذيبها ، بل قبلوها من غير روية ولا تعقل ولا تفقه .

والقرآن الكريم هو أصدق مرجع في تصوير حالة العرب من هذه الناحية ، فان القرآن هو أقدم ما نعرفه من الكتب العربية ، وهو — بما لقي من العناية على مر العصور — أجدر المراجع بالثقة . وقد جمع القرآن الاديان التي كان للعرب اتصال بها في عهده في الآية ١٧ من السورة ٢٢ — الحج مدنية : ”ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى و المجوس و الذين أشركوا ، ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ، ان الله على كل شىء شهيد .“ (١) ، (٢)

فكان منهم من يؤمن بالله خالق السموات والأرض ، ويعتقد أنه

أزلى أبدى ، وما سواه مخلوق ، يقول لبيد :

الا كل شئ ما خلا الله باطل و كل نعيم لا محالة زائل

و يبين لنا القرآن الكريم حال هذا الفريق منهم بقوله : ”ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم“ — سورة ٣؛ آية ٩ الا أن ايمان هؤلاء بالله لم يكن ايمانا متعمقا ناتجا عن العقل المتحضر والبراهين المنطقية والحجج القوية ، بل كان ساذجا للغاية ، مثل وثنيهم التي لم تكن بمستوى وثنية الشعوب المتحضرة ، فكان منهم من يعتقد أن الها واحدا لا يستطيع أن يتكفل وحده بنظام هذا العالم الضخم الرائع ، ذي الشؤون المتبانية والانواع المتعددة . فجعل — بقصور فهمه عن ادراك صفاته — مع الله آلهة أخرى ، وجعل له شركاء . فلما سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم درس التوحيد والتنزيه ، ودحض الشرك بالبراهين والحجج البينة في مثل قوله تعالى : ”لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا“ ، ”سورة ٢١ — آية ٢٢ — استغربوا وأنكروا ذلك وقالوا : ”أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشئ عجاب .“ سورة ٣٨ آية ٥ .

ومنهم من كان ينكر وجود الله ويؤمن بالدهرية الساذجة التي لا تستند الى منطق أو برهان ، وقد بين ذلك القرآن الكريم بقوله : ”وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون“ ، سورة ٥؛ آية ٢٤ . (٣)

ومنهم من كان ينكر البعث بعد الموت لاستبعاده جمع الأجزاء المتفرقة من جسم الانسان بعد أن اختلط كل منها بعنصره ، ولو كان هذا الجحود من البعث مبنيا على المنطق والبرهان ، لاعتبرناه مظهرا من مظاهر الفكر العميق في الكون ولسلمنا بأنه ظاهرة فلسفية في ذلك العصر ، الا أنه لم يكن نتيجة الفكر والبرهان ، بل كان ذلك نتيجة الاستبعاد والاستغراب المحض من جمع أجزاء البدن التي تمزقت

وتفرقت ثم اختلطت بعناصرها. والدليل على ذلك أن القرآن لم يذكر - ولو إشارة - برهانهم على ذلك، بل عالج استغرابهم من البعث بالأجساد، ثم أقام الحجج القوية على اثباته. إلا أن بعض الأفاضل يعتبرون هذا وأمثاله من المظاهر الفلسفية في الجاهلية، لأن ذلك يدل على التفكير في الكون وخالقه، وإن كان هذا التفكير غير مبرهن، فيقول الأستاذ مصطفى عبدالرازق: "كل ذلك يدل على أن العرب عند ظهور الإسلام كانوا يتشبهون بأنواع من النظر العقلي يشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية لاتصالها بما وراء الطبيعة من الألوهية، وقدم العالم وحدثه، والأرواح، والملائكة والجن والبعث بعد الموت ونحو ذلك." (٤) فقد توضح لنا أن العرب في نظر البعض لم يكونوا كما يظن كثير من الناس أهل جهل مطبق، أو ضلالة شاملة، وإنما كانوا أصحاب شعر وحكمة ودين، كان فيهم بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحة العقول، وشعور ديني قوى، يضحون في سبيله بأموالهم وأنفسهم. (٥)

ولا ريب في أن العرب كان لديهم أنواع من الثقافة والفكر، وما كانوا قبل الإسلام في جهل مطبق، ولا يمكن أن تكون أمة من الأمم كذلك، لأن كل أمة مهما كانت بدائية - توجد فيها ثلاثة اتجاهات، الاتجاه المادى، والعقلي، والروحي، ولا توجد أمة من الأمم في أى عصر من العصور خالية من التفكير العقلي والاتجاه البصيري، فإثارة المشاكل الفلسفية اذن توجد في الأمم البدائية والمتحضرة على السواء، ولكن ليس مجرد اثارها فكيرا فلسفيا، أو ظاهرة من ظواهر البحث العقلي المتزن الحر المنظم، بل لا بد لذلك من جدل قوى وفكر منظم مبرهن قوى بمستوى الجدل والفكر المنظم الذى تتسم به الشعوب المتحضرة.

فالمشكلات الفلسفية التى أثارها القرآن ثم عالجها علاجاً شافياً

بالبرهان و البينات ، كانت مشار النزاع على مر العصور بين أهل الجاهلية قبل الاسلام بلا ريب ، ولكن هل كانت اثارها في الجاهلية على مستوى يسمح لنا بأن نسميها تفكيراً فلسفياً أو بحثاً عقلياً؟ أو كانت اثارها عرضاً ساذجاً دون جدل قوى و دون برهان و حجة؟ فإذا تأملنا في القرآن الكريم — الذى يصور المجتمع الجاهلى أحسن تصوير كما تقدم من رأى الأستاذ مصطفى عبد الرزاق ، و كما هو رأى الدكتور طه حسين أيضاً (٦) — فإنه يتضح لنا أن ما أثير من الجدل حول المشاكل الفلسفية في الجاهلية لم يكن بمستوى التفكير الفلسفى. مثلاً اذا تأملنا في دهريةهم يظهر لنا من رد القرآن عليهم أنها كانت نتيجة الظن و الجهل لا نتيجة للفكر العميق و البرهان. قال تعالى: ”وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر، وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون. و اذا نتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم الا أن قالوا: أوتوا بآبائنا ان كنتم صادقين. قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.“ سورة ٥؛ آيات ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ هكذا يتمهم القرآن بالجهل و اتباع الظن و العجز عن اقامة الحججة على دعواهم ، فيطالبهم مراراً في مواضع متعددة باقامة البرهان على ما يعتقدون ، ولو كان لهم حجة على معتقداتهم لذكرها القرآن و رد عليها دون أن يطالبهم باتيان الحججة و البرهان على ما يعتقدون ، بل انهم حينما وجدوا أنفسهم عاجزين عن اقامة البرهان و الدفاع عن مزاعمهم بالحجة و البرهان التجأوا الى التقليد البحت ”واذ قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، فمنعهم القرآن من التقليد لأنه لا يفيد اليقين ، و لا يفيد في معرفة الحق شيئاً ، و قال لهم: ”أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً و لا يهتدون.“ سورة ٢ آية ١١٠ — هكذا يتضح لنا من القرآن الكريم أن معتقداتهم لم تكن مستندة الى دليل ، و ما اختاروها بالعقل

والاقتناع عن طريق البرهان ، بل كان ذلك نتيجة التقليد اللاشعورى
حيناً ، والمتعمد حيناً آخر .

و كذلك انكارهم للبعث بعد الموت لم يكن نتيجة فكر و منطق ،
و پرايين و حجج — كما قلنا سابقا — بل كان نتيجة استبعاد عقولهم
لفكرة اعضاء الجسم بعد تمزقها و فنائها و اختلاط كل عنصر من عناصر
الجسد بأصله ، قال تعالى : ” وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل
ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خاق جديد اقترى على الله كذبا
أم به جنة “ سورة ٤٣ آية ٧ . و قد بين القرآن الكريم ذلك فى آيات
كثيرة و رد عليه بأسلوب معجز لا يسمح الا بالاستسلام ، قال تعالى :
” و ضرب لنا مثلا و نسى خلقه قال من يحيى العظام و هى رميم . قل
يحييها الذى أنشأها اول مرة و هو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم
من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق
السموات و الأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى و هو الخلاق
العليم . “ سورة ٣٦ آية ٧٨ — ٨١ فوجههم القرآن الى أن يعتبروا
بخلقهم و أزال و همهم بأن ارجاع الشئ يكون أسهل من ابداعه ،
و وجههم الى أن الذى خلق هذا العالم الضخم الرائع المحكم المتين
المنظم ، و الذى جمع بين الضدين فى الشجر الأخضر من الماء و النار
و البيوسة و الرطوبة قادر على احيائهم و جمع أجزاءهم المتفرقة ، لأن
ذلك لا يكلفه الكد و التعب و تحمل المشاق كما توهم الجاهلون ، بل
” انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . “ سورة ٣٦ آية ٨٢ .

هكذا أزال القرآن أوهاهمهم فى استبعاد البعث ، و لو كان فكرهم
مستندا الى البراهين و الحجج لذكرها القرآن و رد عليها أيضا ، ولكنه
عالج هذا الاستبعاد الساذج فقط ، و هذا يدل على أن اثارهم للمشاكل
الفلسفية لم تكن بمستوى التفكير الفلسفى . فضلا عن هذا و ذاك
فقد وصف القرآن نفسه مجتمعمهم بالجاهلية . قال تعالى : ” ولا تبرجن

تبرج الجاهلية الاولى. ، و الجاهلية مادتها الجهل ، و الاصل فيها أنها تدل على الحياة الجافة ، و على ما دون الرشد و العقل ، و قد استعمل الجهل ضد العلم في مرحلة متأخرة .

و لاشك في أن العرب كانوا أصحاب ذكاء و شعر و بلاغة و حكم ، و لكن هذا لم يرفعهم الى مستوى الشعوب المتحضرة مثل الفرس و المهنود و أهل اليونان . فلم يضعوا قواعد البلاغة و البديع و المعاني ، بل الفضل في ذلك يرجع الى علماء المسلمين في العصر الاسلامي الزاهر . و كذلك لم يدونوا شعرهم ، فلانجد ديوانا مدونا من العصر الجاهلي . و قد حاول العلماء في العصر الاسلامي جمع أشعار الجاهلية .

و كان من نتيجة تأخر العرب في الجاهلية عن الشعوب المجاورة لهم أن الاكثريّة الساحقة من الوزراء و الكتاب و العلماء في العصور الاسلامية كانت من الفرس و غير العرب ، و لا زال العرب في العصر الاسلامي يفضلون السيف على القلم . يقول الأستاذ أحمد أمين : ” و الحق أن القدرة الكتابية كانت عند الفرس أبين منها عند العرب ، و حتى في الدولة الاموية كان أظهر الكتاب الفنيين من الفرس ، أمثال عبد الحميد الكاتب ، و سالم مولى هشام . و كان العربي يفخر بالسيف و اللسان لا بالقلم . قال يزيد بن معاوية يعدد فضل بيته على زياد ابن أبيه : ” لقد نقلناك من ولاء ثقيف الى عز قريش ، و من عبيد الى أبي سفيان ، و من القلم الى المنابر و لم يزل العرب يفضلون السيف على القلم ، و في ذلك يقول سليط بن جرير المزني :

جها بذة و كتابا و ليسوا بفرسان الكريهة و الطعان

ستعرفني و تذكرني اذا ما تلاقي الحلقتان من البسطان (٧)

و هكذا كان العرب يرغبون عن القلم الى عصور متأخرة — و لعل في قول الرسول عليه السلام : ” انا أمة أمية ، لا نكتب و لا نحسب . .

الخ (٨) إشارة الى ذلك. (٩)

وليس معنى هذا - كما قلت سابقا - أن العرب لم تكن لهم حضارة ولا فكر، لأنهم كانوا أصحاب حضارة وعلوم، وكان فيهم الحكماء، ولكنهم - مع ذلك - لم يكونوا في مستوى الشعوب المجاورة لهم. فلم يوجد عندهم فيلسوف واحد مثلما كان لدى الفرس والهنود وأهل اليونان، ولم يرث العرب من أسلافهم فلسفة وحكمة مثلما ورث هؤلاء من أسلافهم. ذكر الشهرستاني علوم العرب في الجاهلية وعددها ثلاثة أنواع: أحدها علم الأنساب والتواريخ والأديان، والثاني علم الرؤيا، والثالث علم الأنواء (وذلك مما يتولاه الكهنة منهم)، ومن هذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من قال: مطرنا بنوء كذا، فقد كفر بما أنزل على محمد." (١٠)

أما حالتهم من الناحية الدينية فمنهم من كان يميل الى اليهودية، ومنهم من كان يميل الى النصرانية، ومنهم من كان يصبوا الى الصابئة ويعتقد في الأنواء اعتقاد المنجمين في السيارات. (١١) ويقول الشهرستاني عن حكماء العرب: أنهم شرذمة قليلة وأكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر. (١٢)

كل ذلك يؤكد لنا أن الفكر العربي في الجاهلية لم يكن بمستوى الفكر الفارسي والهندي واليوناني، رغم أنه كان فيهم العلماء وأصحاب الذكاء والشعر والبلاغة وفصاحة اللسان. (١٣)

نشأة الفكر والعبقرية عند العرب

لست أهدف مما سبق الى أن أذكر حال العرب قبل الاسلام، وحياتهم الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية، لأن ذلك موضوع بحث مستقل، بل ان هدفي هو الاشارة بالاختصار الى أن أكثر العرب في الجاهلية كانوا يدينون بالوثنية الساذجة الجافة التي لا روح

فيها ولا تطابق العقل والمنطق والذوق السليم ، وكانت حياتهم الاجتماعية والاخلاقية والدينية والسياسية والاقتصادية مضطربة غاية الاضطراب ، وكانوا على مر العصور عرضة للدمار والخراب باشعالهم أوار الحرب التي كانت تستمر أعواما طويلة يفقدون فيها مئات الأرواح و يتلفون فيها الحرث والنسل ، وأعز ما لديهم من الأموال ، ولكن الله أنعم عليهم بالقرآن الكريم ، والنبي الرؤوف الرحيم ، فأخرجهم من الظلمات الى النور بعد أن كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها رحمة منه وفضلا ، ومن هنا تغير مجرى التاريخ بهذا الحادث العظيم ، وتحولت به : ”أمة جاهلة غافلة أمية، شديدة التنافر والتدابير، يضرب بعضها رقاب بعض، وينهب بعضها أموال بعض ، فاذا هي تصبح أمة قد خلقت خلقا جديدا ، فألفت النظام والأمن والعدل ، وطمعت في الرقي وظفرت منه بحظ موفور، ونشرت هذه الخصال كلها في أمم كثيرة في الأرض ، ثم مزجتها وجعلت منها أمة واحدة تتعاون على الخير والبر وترقية الحضارة“، (١٤)

وهكذا تغيرت حال هذه الأمة ، فتبدلت مساوئها بالمحاسن ، وتحولت من الجهل الى العدل ، ومن الفوضى الى النظام ، ومن الدمار الى التعمير والحضارة ، ومن القسوة الى الرأفة ، ومن التنافر الى الألفة والمحبة، ولكل ذلك أمثلة في التاريخ الاسلامي يضييق عنه نطاق بحثنا. وكان مصدر كل هذه الفضائل : القرآن الكريم والتربية النبوية ”ولم يكن خطابه لأمة دون أمة، ووطن دون وطن، ولكن كان خطابه للنفس البشرية والضمير الانساني ، وكانت أمته العربية — لانحطاطها وبؤسها—أحق من يبدأ به مهمته الاصلاحية وجهاده العظيم ، وكانت أم القرى والجزيرة العربية —لموقعها الجغرافي واستقلالها السياسي — خير مركز لرسالته ، وكانت الأمة العربية — بخصائصها النفسية ومزاياها الأدبية — خير محل لدعوته ، وخير داعية لرسالته .“ (١٥) وفوجيء

العالم بظهور العباقرة و النوابغ من هذه الامة التي كان الفساد يرتفع بين جنباتها قبل نزول القرآن و الرسالة المحمدية ، فظهرت شخصيات عبقرية على المسرح العالمى ، فى ميادين القتال و السياسة و التنظيم ، و ساد فى مجتمعهم الخلق و الايثار و الزهد فى متاع الدنيا و ملذات المادة . و خلد التاريخ الانسانى أسماء هؤلاء العباقرة مثل أبى بكر و عمر و على و خالد ، و غيرهم من الصحابة و التابعين .

كل هذا بفضل هذا الكتاب الذى لا زال موجودا بين أيدينا ، يتحدى العالم بما فيه العباقرة و المفكرين و العلماء بقوله : ”وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله و ادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا — و لن تفعلوا — فاتقوا النار التى وقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين . (١٦) “ ، قال المستشرق الفرنسى الأستاذ ”ليبون“ : حسب هذا الكتاب جلالاتا و مجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجذف و لو بعض الشئ من أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عمده بالوجود أسس .“ (١٧)

و هذا التحول العظيم — الذى لم يكن منحصرا فى ناحية من نواحي الحياة ، بل كان شاملا لجميع نواحيها الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية و الثقافية ، انبثق منه الفكر العربى و الفلسفة الاسلامية ، و ذلك لأن القرآن — و ان لم يكن كتابا فلسفيا بالمعنى الفنى — ولكنه عالج المعضلات الفاسفية ، و أوجب النظر العنلى ، و رد على مخالفيه بالأدلة العقابية ، و كانت نتيجة ذلك نشأة الفكر الفلسفى لدى المسلمين و العرب ، بذلك يعتبر القرآن أول مصدر للفلسفة الاسلامية و الفكر العربى .

اعتراف المفكرين بأن مصدر الفكر العربى الاسلامى هو القرآن
قال المستشرق كاراديفو : ”ليس القرآن كتابا فلسفيا ، وليس محمد

فيلسوفاً بالمعنى الفنى لهذه الكلمة ، ولكنه كنى التقي فى أثناء تأديته مهمته ببعض المشاكل الفلسفية فمنحما حلولا الهامية مصوغة فى أسلوب أدبى . و مجموعة هذه الحلول هى التى كونت العقيدة الاسلامية ، وهى التى صارت فيما بعد نقطا محددة فى النظر الفلسفى عند العرب — و اذن فلم تكن المشكلة الهامة عند العرب هى البحث عن الحقيقة ، ما دام هذه الحقيقة قد قدمت اليهم فى عدة من هذه النقط الجوهرية ، وانما كانت هى التدليل بالبراهين التحليلية على هذه الحقيقة التى بسطت بطريقة الهامية ، و استبدال الصورة الأدبية التى صيغت فيها بصورة تتفق مع مناهج الفلسفة القديمة ، و ذلك هو ما يمكن أن يطلق عليه اسم المشكلات المذهبية .“ (١٨)

لا يهمننا من كلام هذا المستشرق سوى أنه يعترف بأن القرآن كان فى نظره مصدرا للفلسفة الاسلامية ، لانه عالج المشاكل الفلسفية العظمى — مثل الألوهية ، والقدرة ، و كون الله مخالفا لجميع الموجودات ، و تنزيهه عن الانسال ، و حدوث العالم ، و علم الله ، و البعث ، و النبوة ، و القضاء و القدر . . و غير ذلك — و بذلك قدم القرآن الى المسلمين مادة التفكير على الأقل ، و فتح أمامهم ميادين النظر ، و هو أول كتاب سماوى يحث على النظر و التدبر فى الكون ليتضح لناظر وجود المبدع و وحدانيته ، و بذلك يكون أول دافع لتغلغل الفلسفة فى البيئة الاسلامية و العربية ، لانه — الى جانب معالجة المشاكل الفلسفية ، حث المؤمنين على التفكير و التدبر و التأمل و النظر فى ملكوت السموات و الأرض : ”أو لم يتفكروا فى ملكوت السموات و الأرض و ما خلق الله من شئ .“ سورة ٧ آية ١٨٥ ، ” ان فى خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار آيات لأولى الألباب “ سورة ٢ آية ١٨٩ ، ” أفلا ينظرون الى الأبل كيف خلقت و الى السماء كيف رفعت و الى الجبال كيف نصبت و الى الأرض كيف سطحت “ سورة ٨٨

آية ٢ . ،، أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها و زينناها وما لها من فروج ”السورة . ٥ الآية ٦ . . فهذه الآيات و أمثالها في القرآن الكريم كلها تدعوننا الى التأمل في الكون ، و تحثنا على الاطلاع و النظر في خلقه و عجائب قدرته لكي نعرف خالقنا الذي خلق كل شىء فهدى — و من أجل ذلك أوجب فلاسفة الاسلام النظر و التأمل في العالم و قالوا بوجوده الدينى ، و ادعوا أن الفلسفة و الاسلام صنوان لا يتباينان ، لأن من أخذ خصائص المسلم التفكير في الكون : ”و يتفكرون في خلق السموات و الأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا . (١٩) ، و الفلسفة شيئا أكثر من التفكير العقلى في الكون — و بذلك أثبتوا أن الدين و الفلسفة يهدفان الى غاية واحدة .

قال الفارابى : ”ان الفيلسوف الكامل هو الذى يحصل هذا العلم الكلى و يكون له قوة على استعماله .“ (٢٠) يعنى الذى يحصل الفضائل النظرية أولا ، ثم الفضائل العملية ببصيرة يقينية . نرى أن الدين يهدف الى نفس الهدف . و الفلسفة و الدين الاسلامى عند الفارابى متفقان لا خلاف بينهما ، لأن كلا منهما حق ، و الحق لا يخالف الحق . فالفلسفة و الدين يعبران عن حقيقة واحدة من وجهتين مختلفتين ، و قد يميز بينهما أن الفلسفة في محاولتها للوصول الى الحقيقة تستعمل و سائل غير الوسائل التى يعمد اليها الدين .

و يقول ابن سينا : ”و مبادئ هذه الأقسام التى للفلسفة النظرية من أرباب الملة الالهية على سبيل التنبيه .“ (٢١)

هكذا يرى ابن سينا أن مبادئ الفلسفة النظرية من الدين ، فلا خلاف بينهما . (٢٢)

فقد لاحظ فلاسفة الاسلام قديما و حديثا أن مادة تفكيرهم نابعة من القرآن الكريم ، و أنه أول منبع لعلومهم العقلية ، و هو الذى تسبب في ازدهار الفلسفة و العلوم العقلية في العالم الاسلامى قبل أى شىء

آخر ، ولذلك جعلوا القرآن معيارا ومقياسا لصحة أفكارهم أو بطلانها . ولم يكن مفكرو العرب والاسلام قد لاحظوا ذلك فقط ، بل ان كثيرا من مفكرى الغرب اعترفوا بهذه الحقيقة البينة ، كما توضح لنا ذلك من قول كارديفو الذى أوردناه سابقا ، وكما يقول ريسلر الفرنسى ما نصه ”ظل القرآن طيلة القرون الأولى للمهجرة من جهة المبدأ مصدر الالهام لكل العقلية الاسلامية . فهو يضم بين أطرافه الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات فى الفكر . والمفسرون للقرآن — وهم علماء — يمثلون المعرفة والنشاط الفكرى لأهل السنة .“ (٢٣)

كما اعترف كثير من المستشرقين المنصفين النزهاء بفضيل القرآن فى نشأة الفكر العربى والاسلامى ، واعتبروه أول عامل من عوامل النهضة العربية ، وأول منبع من منابع الفلسفة الاسلامية العربية . فيقول ريسلر فى موضع آخر من كتابه المذكور: ”كان أول تعبير عن الفلسفة هو نمو مدرسة من ”المنشقين“ أى من المعتزلة ، الذين كانوا يجاهرون بضرورة التفسير المجازى للقرآن والحديث اذا تناقضا مع العقل ، أى تناقض ظاهرهما مع العقل .“ (٢٤)

وهكذا تنبه الغربيون الى ما نبه اليه المسلمين وأوضحوا قبلهم بقرون من أن مصدر فكرهم وفلسفتهم هو القرآن الكريم ، وهو المنبع الذى تفجرت منه أنهار المعرفة وجداول العلم والفلسفة والآداب ، واليه يرجع الفضل فى الحضارة العربية والفكر الاسلامى . يقول ابن رشد : ”ان كان فعل الفلسفة ليس شيئا أكثر من النظر فى الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع — أعنى من جهة ما هى مصنوعات — فان الموجودات انما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها ، وأنه وكان كلما كانت المعرفة بصنعها أتم — كانت المعرفة بالصانع أتم . الشرع قد ندب الى اعتبار الموجودات بالعقل وحث على ذلك ، فبين

أن ما يدل عليه هذا الاسم اما واجب بالشرع واما مندوب اليه ، فأما أن الشرع دعا الى اعتبار الموجودات بالعقل وتطلب معرفتها به ، فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى ، مثل قوله تعالى : فاعتبروا يا اولى الالباب ” و هذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي ، أو العقلي والشرعى معا . و مثل قوله تعالى : ” أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ . “ ، وهذا نص بالحث على النظر في جميع الموجودات . “ (٢٥)

يتضح من هذا النص أن الفلسفة في نظر ابن رشد هي التفكير في الكون والنظر في الموجودات ، وهذا واجب علينا من جانب الشرع ، كما أننا ألزمتنا - في نظره - من جانب الشارع باستعمال القياس العقلي ، وادراكه موقوف على النظر في كتب السابقين من الفلاسفة ، فالنظر فيها واجب أيضا ، لأن ذلك من مقدمات الواجب ، وكل ما شأنه كذلك فهو واجب . وسنوضح هذا في موضعه مع موقف الامام الغزالي من كتب السابقين من الفلاسفة .

و رأى ابن رشد في وجوب النظر وتعلم الفلسفة مثل رأى فيلسوف العرب الكندى ، فهو يرى أن الذى يحجم ويبعد الناس عن الفلسفة وينكر افاديتها فانه عار من الدين ، لاحتواء الفلسفة على علم وجود الله و وحدانيته و علم كل فضيلة . يقول الكندى ما نصه : ” و يحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الاشياء بحقيقتها و سماها كفرا . لأن في علم الاشياء بحقائقها علم الربوبية و علم الوحدانية و علم الفضيلة ، و جملة علم كل نافع و السبيل اليه ، و البعد عن كل ضار و الاحتراس منه . و اقتناء هذه جميعا هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه ، فان الرسل الصادقة - صلوات الله عليها - انما أتت بالاقرار بربوبية الله وحده ، و بلزوم الفضائل المرتضاة عنده ، و ترك الرذائل المضادة للفضائل في ذواتها و ايثارها ، فواجب اذن التمسك

بهذه القنينة النفيسة عند ذوى الحق ، و أن نسعى في طلبها بغاية جهدها
 كما قدمنا ، ما نحن القائلون الآن . و ذلك أنه باضطراب يجب على
 السنة المتضادين لها اقتناؤها ، و ذلك أنهم لا يخلو من أن يقولوا :
 أن اقتناءها يجب أو لا يجب ، فان قالوا أنه يجب ، و جب طلبها عليهم ،
 و ان قالوا أنها لا تجب عليهم ، و جب عليهم أن يحصروا علة ذلك ،
 و أن يعطوا على ذلك برهاناً ، و اعطاء العلة و البرهان من طلب
 قنينة علم الأشياء بحقائقها . فواجب اذن طلب هذه القنينة بألسنتهم ،
 و التمسك اضطراب عليهم .’’ (٢٦)

نرى أن الفارابي و ابن سينا و ابن رشد قالوا نفس ما قال به
 الكندي قبلهم من وحدة غاية الدين و الفلسفة ، و وجوب النظر
 فيهما ، و التوفيق بينهما ، لأن خلاصة نصه هي أن الفلسفة عبارة عن
 معرفة حقائق الأشياء و العلم بما هياتها ، و فيها العلم بالربوبية
 و الوجدانية ، بل و فيها علم الفضائل قاطبة ، و كل ما ينفع الانسان ،
 و علم طريق الحصول عليه ، و علم طريق البعد عن كل ضار ، و تعلم
 هذا و ذاك واجب — و فضلا عن هذا فهو نفس ما جاء به الرسل
 عليهم السلام ، و بذلك اتحدت غاية الدين و الفلسفة في نظره .

و ان قالوا بعدم وجوب الحصول على العلوم الفلسفية فعليهم
 اقامة الحججة على ذلك ، لأن الذي يدعى نسبة تامة — سواء تكون
 ايجابية أو سلبية — عليه باقامة الحججة عليها . و اقامة الحججة و طريقها
 من العلوم الفلسفية ، و بذلك و جب تحصيل الفلسفة على كل من يدعى
 وجوب الحصول عليها أو عدم وجوبه . و يتفق الكندي في هذا الرأي
 مع أحدث ما قيل في آداب البحث بأن الدليل من واجب من يدعى
 النسبة سواء تكون تلك النسبة ايجابية أو سلبية .

هكذا اتفق فلاسفة الاسلام من أولهم الى آخرهم على وجوب النظر
 على من يكون أهلا له ، و دليلهم على ذلك هو الآيات التي تدعو الى

النظر والتدبر والتفكير في الكون ، وهذا يدل على أن مصدر الفكر والفلسفة لدى المسلمين والعرب هو القرآن الكريم ، وأنه هو السبب الأول في نشأة الفكر الفلسفي عندهم .

العوامل الثانوية لازدهار الفلسفة الاسلامية

وقد زاد الفكر الاسلامي ازدهارا بعد اتصال المسلمين بالأجناس المختلفة من الفرس والهنود ، وبعد اطلاعهم على التراث اليوناني بعد عصر الترجمة ، فهذان أيضا عاملان من عوامل ازدهار الفكر الفلسفي عند العرب ، الا أننا لا نعتبر ذلك مصدرا للفكر الاسلامي ، رغم اعترافنا بأن الثقافة الهندية والفارسية واليونانية قد أثرت تأثيرا ملحوظا في الفكر الاسلامي ، كما تأثرت بها الحضارة العربية الى أبعد الحدود ، وخاصة تأثير الفكر اليوناني في الفلسفة الاسلامية ، الذي لا يمكن أن يكون موضع جدل أو شبهة ، ولذلك يعتبره كثير من المفكرين الاسلاميين عاملا ثانيا بعد القرآن الكريم للنهضة العربية والفلسفة الاسلامية (٢٧) ، بل ان منهم من يذهب الى أن العلوم الاسلامية مؤسسه منذ بدء نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان ، بل وعلى أوهام اليونان حتى لا يكاد يفهم آراء حكماء الاسلام ، ولا مذاهب قدماء المتكلمين ، ولا بدع المبتدعين من لهم يكن له بحكمة اليونان معرفة شافية لا مجرد المام ، وهذا لا يحتاج الى برهان ، بل نعول فيه على العيان ، فصار هذا التاريخ والحالة هذه المقدمة الضرورية لتاريخ التمدن الاسلامي ، لا يسع أحدا من هذه الائمة أهاله ولا طالب الحكمة جمهله . (٢٨)

لا ريب في أهمية الفكر اليوناني بالنسبة للفكر الاسلامي والفلسفة الاسلامية والنهضة العربية ، ولا جدال في تأثير هذا الأخير بالثقافة اليونانية وأيضا الهندية والفارسية ، ولكن ليس معنى ذلك أن الفكر

الاسلامى والنهضة العربية ذيل تابع للفكر الاجنبى ايا كان هذا الفكر،
و ليس من العدل و الانصاف أن يقال أن الفكر الاسلامى ليس الا ترجمة
لثقافة اليونانية كما يزعم ذلك بعض الغربيين. (٢٩)

ليس الفكر اليونانى مصدرا للفلسفة الاسلامية ، لآن جذورها
تمتد الى ما قبل عصر الترجمة و الى العصر الذى لم يعرف فيه المسلمون
معارف اليونان ، فيعتبر الرأى أول مظهر من مظاهر الفلسفة الاسلامية
فى البيئته و علم أصول الفقه ، و القياس الفقهي الاصولى ، ثم بعد ذلك
علم الكلام و تأويل المعتزلة فى نصوص الكتاب و السنة ، ان ظهر
لهم التعارض بين معانيها الحقيقية و بين العقل ، بل ان بعض المفكرين
المسلمين يعتبرون علم الكلام و التصوف و علم أصول الفقه فلسفة
اسلامية ، و يخرجون من دائرة الفكر الاسلامى آراء الفلاسفة المسلمين
التي تأثرت كثيرا بالمعارف اليونانية حتى اعتبر هؤلاء آراءهم شرحا
و ترجمة لأفكار فلاسفة اليونان مثل برتراند رسل و أشباهه .

و تعليقا على قول ديبور من أن فلاسفة الاسلام لم يستطيعوا أن
يردوا أنفسهم من التفلسف ، يقول الدكتور سامى النشار: ”و هذا
الحكم حق اذا ما قصدنا بالفلسفة فلسفة الدائرة الفلسفية اليونانية التي
ظهرت فى العالم الاسلامى ، و كانوا يونانيين روحا : الكندى و الفارابى
و ابن سينا و ابن رشد الى حد ما و من تابعهم من دوائر قليلة منعزلة كما
قلت من قبل . أما عن الدائرة الفكرية الفلسفية المسلمة التي تعبر عن روح
الاسلام ، فان الفلسفة الاسلامية هى شىء أعظم بكثير و أشد نضوجا ،
هى فلسفة كاملة فى تعبيرها عن الاسلام الحقيقى ، و أهلها مسلمون
روحا و جسدا ، أما هذه الفلسفة فهى فلسفة المتكلمين من أشاعرة و
ماتريدية ، و معتزلة و شيعة معتدلة و صوفية أخلاقية سنية ، فلم تقبل
فلسفة اليونان و لفظتها . أما هذا النموذج المصبوغ بصبغات اليونان
و الفرس و بصبغة الغنوص فليس هو أبدا فلسفة اسلامية .

من يجرؤ على القول ان الفارابي كان فيلسوف الاسلام ، أو أن ابن سينا يمثل الفلسفة الاسلامية في شيء ، ولعل ابن رشد كان أكثر أصالة من هؤلاء (٣٠) ، فقدم مذهبا مسلما في بعض كتبه ، ومذهبا يونانيا في البعض الآخر. ان الفلسفة الاسلامية الحققة لم تناول أبدا الفلسفة من حيث انتهت لدى الافلاطونية المجدثة ، لقد تلقى هذه الأخيرة رجال نشأوا في العالم الاسلامي "ولم يستطيعوا أن يردوا أنفسهم عن التفلسف" أما رجال الفلسفة الاسلامية أو بمعنى أدق الفلسفة المسلمة ، فقد كانوا في حلقاتهم تصورا فلسفيا جديدا ما أبعد عن تلك الفلسفة الانتحائية. (٣١)

يتضح لنا من هذا النص ما يلي :

أولا - ان الفلسفة الاسلامية تمثل في علم الأخلاق وعلم الكلام ، هي ذات أصالة وليست استمرارا لفلسفة اليونان ، ولم تتأثر بها ، ويمثل هذه الفلسفة المتكلمون من الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والصوفية والسنية . ويذكر من أشهر رجالها في العبارة التالية : "كان امام المهدي أبو الحسن الأشعري أو غرماؤه من المعتزلة ، والباقلاني وامام الحرمين والغزالي يعبرون عن روح الاسلام المنبثق من القرآن والسنة. (٣٢)

وما من شك في أن علم الكلام والأخلاق الاسلامية من أوائل المظاهر الفلسفية في البيئة الاسلامية ، كما قلنا ذلك سابقا ، ولا ريب في أن علم الكلام منبثق من المعين الاسلامي ، ويرجع تكوينه الى احتكاك الآراء الاسلامية بالاقاويل الأجنبية ، والى الجدل العنيف الذي كان يدور حول تأويل المتشابهات ، والى الدفاع عن الاسلام ضد هجمات الافكار الباطلة الباقية في الأرجاء المفتوحة من العالم الاسلامي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى يرجع تكوين علم الكلام وازدهاره الى تأويل النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، وذلك لارضاء

نزعة العقل حيناً ، و للدفاع عن العقيدة الاسلامية ضد العقليين الذين كانوا يزعمون بسيادة العقل في جميع الميادين حيناً آخر. ومن أجل هذا و ذلك ، ليس مصدر هذا العلم الفلسفة اليونانية أو الهندية أو الفارسية ، بل ان له أصالة و جذورا راسخة في البيئة الاسلامية و النصوص الشرعية .

ولكننا لا نستطيع أن نسلم مع الدكتور سامي النشار بأن هذا العلم و القائمين بأمره — وهم المعتزلة في أول الأمر — يعبرون عن روح الاسلام ، و ان اختلاف أجلة الفقهاء و كبار علماء الاسلام مع المعتزلة لا يخفى على دارس تاريخ الفكر الاسلامي ، و كذلك لا نستطيع أن نسلم مع السيد الدكتور بأن علم الكلام و القائمين بأمره لم يتأثروا بالفلسفة اليونانية ، بل انهم لفظوها حسب تعبيره ، لأن اختلاط الفلسفة اليونانية بعلم الكلام — لا تأثره بها فقط — أمر جلي لا يدع مجالاً للشك و الارتياب ، كما أن رجال الفلسفة الاسلامية و علم الكلام ، و خاصة بعض الشخصيات المشهورة منهم ، قد تأثروا بالفلسفة اليونانية متأثراً بالغاء . من الذي يستطيع القول بأن الغزالي لم يتأثر بالفلسفة اليونانية ؟ يقول ابن طفيل عن هذا الامام الجليل : ” انه متكلم مع المتكلمين ، و فيلسوف مع الفلاسفة ، و صوفي مع المتصوفة . “ (٣٣) و يقول ابن طفيل هذا طعنا فيه . و لكن ذلك يدل على المامه كاملاً بهذه العلوم ، و تأثره بها متأثراً بالغاء . و يقول ابن تيمية ما نصه : ” فأما أبو حامد فقد وضع مقدمة منطقية في أول ” المستصفى “ و زعم أن من لم يحط بها علماً فلا ثقة له بشيء من علومه . و صنف في ذلك ” محك النظر “ ، و ” معيار العلم “ ، و دوماً اشتدت به ثقة ، و أعجب من ذلك أنه وضع كتاباً سماه ” القسطاس المستقيم “ ، و نسبه الى أنه تعليم الأنبياء ، و انما تعلمه من ابن سينا ، و هو تعلمه من كتب أرسطو . و هؤلاء الذين تكلموا في ” الحدود “ بعد أبي حامد و هم الذين تكلموا في الحدود

بطريقة أهل المنطق اليوناني. “ (٣٤)

يتضح لنا من هذا النص مدى تأثير الامام الغزالي الذي يمثل الفكر الاسلامي — بالفكر اليوناني. وقد اعترف الدكتور النشار بتأثير بعض المتكلمين بالافلاطونية المحدثة، (٣٥) اذ قال ما نصه: ”و لم يتأثر المتكلمون في مباحثهم بالفلسفة الافلاطونية المحدثة أبدا، اذ أن بين جوهرى الفلسفتين تعارضا عنيفا، غير أن بعض الطوائف التي اعتبرت خارجة على الاسلام، كمغالات الشيعة والبايية والبهائية، أخذت بكثير من قواعد الفلسفة الافلاطونية الحديثة. “ (٣٦)، وكذلك يقول في موضع آخر: ”لم تؤثر الافلاطونية المحدثة في المسلمين، و ان كانت قد أثرت في عدة طوائف حملت أسماء المسلمين. “ (٣٧)

نرى أن الدكتور النشار يعترف بتأثير بعض الطوائف الاسلامية بالافلاطونية الحديثة، رغم أنه يصدد نفى هذا التأثير، ثم انه يعترف بوصول الاثر الافلاطوني الحديث الى أخطر علم من علوم المسلمين، وهو علم الحديث النبوي، حيث يقول: ”وقد عدد الباحثون المحدثون أحاديث قدسية موضوعة، دخلت بعد عصر النبي عليه السلام، وفيها تلك الصبغة الافلاطونية المحدثة مثل قولهم ”أول ما خلق الله العقل. فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال له: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقا أكرم على منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أتيب، وبك أعاقب. “ هذا الحديث اعتبر قدسيا، بينما كان غنوصيون اسلاميون هم الذين أنطقوا النبي بلسان أفلوطين. غير أن علماء الحديث، وفي مقدمتهم تقي الدين بن تيمية، هاجموه هجوما عنيفا، وأثبتوا وضعه وصلته بالفلسفة اليونانية. “ (٣٨) وهناك أحاديث أخرى اعتبرها الباحثون من وضع الافلاطونية الحديثة مثل: ”كنت نبيا و آدم بين الطين و الماء، “ و الحديث الثالث هو: ”كنت كنزا مخفيا، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق فبه عرفوني، “ (٣٩)

فإذا وصل أثر الفلسفة اليونانية الى هذا الحد حتى أن أخطر علم من علوم المسلمين لم يسلم منه ، فكيف يمكن أن نعتقد بأن علم الكلام لم يقبل هذا الأثر ، وأن مفكرى الاسلام لم يتأثروا بها ؟ فقد تأثر المتكلمون بالفكر اليونانى الى أبعد الحدود ، وان كان تأثرهم به أقل من تأثر فلاسفة المسلمين به ثانياً — ان المشهورين من فلاسفة الاسلام : الكندى و الفارابى و ابن رشد و ابن سينا ، ليسوا فلاسفة الاسلام ، و هم لا يمثلون الفكر الاسلامى ، بل انهم قاموا بعمل يعتبر ترجمة و شرحاً للفكر اليونانى ، ليس فيه جدة و لا ابداع ، و بذلك هم أتباع لفلاسفة اليونان فى الفكر و النظر. و يؤيد ذلك قول الدكتور النشار : ” انتقلت الفلسفة اليونانية الى العالم الاسلامى ، و تابعها بلاشك بعض الاسلاميين ، فظهر الكندى و الفارابى و ابن سينا ، و عدد من شخصيات فلسفية كانوا أقرب فى عملهم الى الشرح و التعليق . “ (٤٠)

و يقول أيضاً فى نفس المعنى : ” ظهر الكندى و الفارابى و ابن سينا و أبو البركات البغدادى و ابن رشد ، و حاول كل منهم أن يغوص فى أعماق تلك الفلسفة — اليونانية — و أن يعمل شيئاً فيه جدة و طرافة ، و لكن ما وصل اليها عنهم لم يكن شيئاً جديداً ، كان فقط صورة من المشائية أو الأفلاطونية الحديثة ، مع محاولة غير ناجحة للتوفيق بينها و بين الفكر القرآنى . (٤١)

هكذا يقسو الدكتور النشار على فلاسفة الاسلام و ينفى عنهم كل جدة و طرافة ، و بذلك يجارى بعض الغربيين ، و كأنه يسايرهم ضد فلاسفة الاسلام .

و كيف يستساغ رأى الدكتور النشار اذا قورن بنصوص عظماء المستشرقين التى تتناقض معه تماماً . يقول البارون كارادى فو عن الفارابى و ابن سينا وغيرهما من فلاسفة الاسلام : ” أولئك الرجال ذوو العقول الواسعة الذين يجدر امتداد معارفهم و تعددها باثارة الجسد

في نفوس هواة المتخصصين من العلماء في عصرنا الحاضر مادام أولئك القدماء قد حاولوا بكل ما أوتوا من قوة في عبورهم أن يفهموا جميع النظريات والمذاهب ، ولم يعرفوا أى حائل يقف بينهم وبين البحث العقلي . أولئك الذين أرادوا أن تكون جميع حقول النشاط البشري مفتوحة أمامهم ، والذين نزلوا وصعدوا بسهولة معادلتين كل درجات سلم الكائنات : من الأرض العميقة الى الفلك الأعلى ، ومن ظلام المادة غير القابل للادراك الى بهر نور العقل المجرد بقدر ما تسمح به طبيعة الذهن البشري .“ (٤٢)

ويقول ريسلر : ”لقد ورث الاسلام تراث اليونان من الفلسفة والعلوم ، ثم بعد أن نماها نقلها الى أوربا الغربية . كما أنه استطاع أن يوسع الأفق الفكري للعصر الوسيط ، وأن ينفذ بعنق الى الفكر والحياة الأوروبية .“ (٤٣)

هذا ما يراه الأجانب من فضلهم ، ولكن الدكتور النشار رغم كونه من أبرز الباحثين المعاصرين ، ورغم غيرته الشديدة على الاسلام وتراثه ، يحط من شأنهم الى هذا الحد الذي أومأنا اليه .

وهل من المعقول أن نسلم بأن فلسفة الكندي ونظرياته كلها صورة من المشائية ، أو الأفلاطونية المحدثة ؟ رغم أن الكندي يخالف المشائيين و الأفلوطينيين المحدثين في كثير من أهم المشاكل الفلسفية العظمى ، وذلك مثل : حدوث العالم والبعث ، وعالم الله بالجزئيات ، والنبوة ، وغيرها . ونستطيع أن نؤكد القول بأنه لا توجد فيما لدينا من آثار الكندي كلمة واحدة تعارض الاسلام في أصوله .

وقد لاحظ كثير من العلماء هذه الظاهرة الطيبة في نظريات الكندي الفلسفية ، ولذلك عده البعض من المتكلمين ، وحاولوا اخراجه من زمرة الفلاسفة .

لقد نشأ الكندي في الاطار الاعتزالي الكلامي ، وازدهرت آراؤه

في نفس المجال، بل ان أفكاره تعتبر نتيجة للفكر الكلامي الاعتزالي. (٤٤) وهو مثل علماء الكلام يهدف من وراء فلسفته تأييد الدين والدفاع عنه ، كما سيتضح لنا ذلك فيما بعد ، ومن أجل ذلك كان لابد من أن يعدد فيلسوفا مسلما — حسب اللقب الذي اشتهر به على مر العصور — عند الدكتور النشار حيث أنه يعتبر المتكلمين فلاسفة الاسلام الحقيقيين ، ومثلى الحركة الفكرية الفلسفية في الاسلام .

ولسنا بصدد نفى تأثير الكندي بالمعارف الأجنبية ، فانه لم يكن جمادا يتحجر أمام التيارات الثقافية المعاصرة له أو السابقة على عصره ، بحيث لا يؤثر ولا يتأثر ، والثقافات البشرية والمعارف الانسانية كلها متقاربة يقبل بعضها آثار بعض ، كما أن المفكرين لا يمكن لأحدهم الاقتصار على ثقافة وفكر مستقل من جميع النواحي ، واجتناب التأثير بالمعارف البشرية السابقة أو المعاصرة المحيطة به ، فاذا قبل الفكا الاسلامي أو فلاسفة الاسلام دون أى مكابرة — الاثر اليوناني ، فان أهل اليونان من قبلهم قد قبلوا أثر الفلسفة الشرقية ودياناتها ، وهذا أمر جلي مسلم به لدى الجميع ، (٤٥) ولكننا لا نستطيع القول بأن فلسفة الكندي ونظرياته ، أو الفلسفة الاسلامية وانتاج فلاسفة الاسلام عامة ، صورة من المشائية والأفلاطونية الجديدة كما يرى ذلك الدكتور النشار ، وبعض الغربيين قبله ، وذلك لأنه — كما مر من قول برتراند رسل في هذا الصدد ، و كما يقول ريسلر : "كانت فلسفة الكندي طبعة ثانية لمذهب الأفلاطونية المحدثة لأفلاطون الذي يقوم مذهبه على فيض ثلاثي من الله يصدر عنه روح العالم ، أو العقل الخالق ثم يصدر عن العقل نفس الانسان ، واذا باشر الانسان المعرفة الصادقة — استطاع أن يحصل على الحرية . " (٤٦)

ولكنهم قد يعذرون لعدم احاطتهم بالفكر الفلسفي الاسلامي ، كما أن بعضهم متعصبون ، يهاجمون كل ما ينسب الى الاسلام والمسلمين .

وإن المنصفين النزهاء منهم يعترفون بإبداع فلاسفة الاسلام ، فاذا رأينا ما يقوله ريسلر في الكندي ، نراه يقول في الفارابي ما يلي : ”نحن مدينون للفارابي في القرن العاشر بكتابه الشهير ”الموسيقى الكبير“ الذي أسقط نهائيا المفاهيم الخاطئة للمدرسة الفيثاغورية تجاه موسيقى الكواكب ، وتناسق الأجرام السماوية . وهو من أوائل الموسيقيين الذين قدموا التفسير المادي لظاهرة النغمة التي تأتي من اهتزازات الهواء ، والتي تزداد شدتها أو تقل بحسب طول الموجة . وأتاح له هذا التحقيق الاستقرائي أن يحدد القواعد الضرورية لتركيب الآلات الموسيقية . والعرب أيضا هم الذين أدخلوا فكرة الوزن في الموسيقى ، وهيأت نتيجة كل هذه الخطوات الفنية ارتقاء الموسيقى الشعبية في أسبانيا وفي البرتغال .“ (٤٧)

وهكذا يعترف هذا الفرنسي المتزن بإبداع الفارابي والعرب في ميدان الموسيقى وتأثيرهم في الغرب ، وقد مر بنا رأيه في ابداع فلاسفة الاسلام عامة .

وحاصل القول اننا مع الدكتور سامي النشارحين يقول : ”ليس في حياة المسلمين ولا في تاريخهم من حقائق أخطر ولا أدق من حقائق هذه الفلسفة الاسلامية ، انها جوهر حياتهم ، ومرآة تطورهم ، وانعكاس لما في باطن مجتمعاتهم من آمال وآلام . ولقد شملت هذه الفلسفة آفاقا متعددة ، و اقتحمت ميادين متسعة ، ميتافيزيقية ، وطبيعية ، وأخلاقية ، وسياسية ، وأقامت حضارة ذات طابع خاص ، يميزها عن غيرها من الحضارات ، ويفصلها عن غيرها من الأمم . ولهذا كان من المحال أن نقول : انها امتداد لحضارة أخرى ، أو صورة غير متكاملة لفلسفات وأفكار سابقة .“ (٤٨)

و نؤيده في قوله : ”وما أشد عبث هؤلاء الذين يقولون اننا كنا ذيلا لحضارة ولا ينبغي أن نكون ذيلا لحضارة .“ (٤٩)

ولكننا لا نسلم له بأن علم الكلام لم يتأثر ولم يقبل اطلاقا أثر الفلسفة اليونانية ، لأن تأثير علم الكلام ، وخاصة عند المتأخرين ، أمر مسلم به ، يعترف به رجال الكلام أنفسهم ، يقول التفنازاني : ”شم انهم ”المعتزلة“، توغلوا في علم الكلام و تشبثوا بأذيال الفلاسفة في كثير من الأحوال.“ (٥٠)

ونعترف أيضا بأن فلاسفة الاسلام تأثروا بالفكر اليوناني ، حتى أن منهم من كان يدعو الى تقليد أرسطو كابن رشد ، كما سنوضح ذلك فيما بعد ، وكان لتأثر فلاسفة الاسلام البالغ بفلسفة اليونان نتائج غير مرضية ، بقي أثرها في العالم الاسلامي ، ولكننا مع ذلك لا نسلم مع الدكتور النشار بأن فلاسفة الاسلام خارجون عن اطار الفكر الاسلامي ، وأن قرائحهم لم تجد بأي جديد ، ولذلك فاننا نلاحظ في كلامه الافراط والتفريط.

فعلم الكلام — كما سبق مرارا — من أوائل الظواهر الفلسفية في البيئة الاسلامية ، وان تأثره وتأثير القائمين بعصره بالفلسفة اليونانية أمر مسلم به ، رغم أن هذا التأثير كان أقل من تأثير فلاسفة الاسلام بالفكر اليوناني ولكن ليس معنى ذلك أنهم ما أتوا بجديد ، ولولا خشية الاطالة لدعمنا كل ما نقول في هذا الصدد بالنصوص والشواهد من كتب فلاسفة الاسلام ، ولكننا سنذكر فيما بعد ما سيوضح لنا أصالة فكرهم ، كما سيتضح لنا مما سيأتي العوامل الثانوية لازدهار الفلسفة الاسلامية.

المراجع

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلاميه للأستاذ مصطفى عبدالرازق

ص ١٠٢

(٢) ونضيف الى ذلك أن القرآن كان كتابا سماويا من الله وبذلك يفوق الاحتجاج بأى كتاب آخر، ولكن الأستاذ مصطفى عبد الرزاق كان يسوق كلامه الى عامة البشر من المسلمين وغيرهم من المثقفين الذين يعتنون بالعلم.

(٣) ان جزيرة العرب لم تكن كلها وثنية: كانت النصرانية في ربيعة و غسان وبعض قضاة، وكانت اليهودية في حمير و بنى كنانة و بنى الحارث بن كعب و كندة، وكانت المجوسية في تميم: منهم زرارعة و صاحب بن زرارعة، و منهم الأقرع بن حابس، كان يدين بالرجعة، يقول صاحب لسان العرب: "والرجعة مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم." ولم يكن القول بالجبر أو القول بالاختيار بعيدا عن العقلية العربية، يقول يحيى بن متى رواية عن الأعشى: "كان الأعشى قدريا، وكان لبيد مشبثا، وقال لبيد:

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال و من شاء أضل

وقال الأعشى:

استأثر بالسوءاء و بالعدو ل و ولي الملامة الرجال (٣)

(التفكير الفلسفي في الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٣٥-٣٦)

(٤) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٠٥

(٥) التفكير الفلسفي في الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود.

(٦) ان القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية... الشعر الجاهلي ص ١٦

(٧) ضحى الاسلام ص ١٦٨

(٨) صحيح مسلم ج ٧ ص ١٩٣

(٩) لقد كانت الأثرية الساحقة من حملة العلم في العصر الاسلامي

الزاهر من غير العرب، ذلك لأنهم ورثوا ثقافات متنوعة عن أجدادهم، يقول ابن خلدون: "ان حملة العلم في الملة الاسلامية العجم، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية، الا في القليل النادر، وان كان منهم العربي في منبته فهو عجمي في لغته و مرباه و مشيخته." (١) وقد علل ابن خلدون ذلك بأن العلوم من جملة الصناعات و الصناعات من خصائص الحضرة، و العرب

كانوا بدوا، فكانت العلوم من نتاج الحضرة والحضرة في ذلك العهد هم العجم. وقال ابن خلدون: "فكان صاحب صناعة النحو سيبويه، و الفارسي من بعده، والزجاج من بعدهما، وكلهم عجم في أنسابهم، وإنما ربوا في اللسان العربي فاكسبوه بالعربي ومخالطة العرب، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم. وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم، أو متعجمون باللغة والمربي، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم (ب) كما يعرف، وكذا حملة علم الكلام، وكذا أكثر المفسرين. ولم يبق بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم: "لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل فارس." (ج) كل ذلك نتيجة أن الفرس كانوا قبل الاسلام أصحاب قلم وحضارة عميقة، ولم يكن العرب مثلهم في الجاهلية، إلا أن في نص ابن خلدون كثيرا من المغالاة.

(أ) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٧

(ب) وهذا خطأ لأن المعروف أن من وضع أصول الفقه الامام الشافعي وهو عربي.

(ج) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٧

(١٠) الملل والنحل للشهرستاني ص ٢٥٠ تخريج الأستاذ فتح الله بدران.

(١١) نفس المرجع ص ٢٤٧.

(١٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة للأستاذ مصطفى عبد الرازق ص ٣٣.

(١٣) يقول الدكتور طه حسين عن العرب في الجاهلية: "لم يكونوا جهالا، ولا أغبياء، ولا غلاظا، ولا أصحاب حياة خشنة جافية، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء، وأصحاب عواطف رقيقة، وعيش فيه لين ونعمة، وهنا يجب أن نحتاط، فلم يكن العرب كلهم كذلك، ولا يمثلهم القرآن كلهم كذلك، وإنما كانوا - كغيرهم من الأمم القديمة، وكثير من الأمم الحديثة - منقسمين إلى طبقتين: طبقة المستنيرين الذين يمتازون بالثروة والجاه والذكاء والعلم، وطبقة العامة الذين لا يكاد يكون لهم من هذا حظ، والقرآن شاهد بهذا، أليس يحدثنا عن أولئك المستضعفين الذين كفروا - طاعة لسادتهم وزعمائهم - لا اجتهادا في الرأي ولا اقتناعا بالحق، والذين يقولون يوم يسألون: "ربنا انا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا." والقرآن يحدثنا عن جفوة الأعراب وغلظتهم وابعانهم في الكفر والنفاق وقلة حظهم من العاطفة الرقيقة التي تحمل على الايمان والتدين. أليس هو

الذى يقول: "الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر، ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم (٩٧ التوبة)." هكذا كان العرب طبقتين كما هو حال جميع الأقوام حديثا وقديما، كانت الأولى أقلية مضمحلة، بينما كانت الأغلبية للطبقة الأخرى. " (الشعر الجاهلي ص ٢١)

(١٤) مرآة الاسلام للدكتور طه حسين ص ١٥٣.

(١٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - للأستاذ أبو الحسن على

الندوى - ص ٧٨، ٧٩.

(١٦) الآية ٢٤ السورة ١

(١٧) الاسلام من مبادئه التأسيسية للدكتور محمد غلاب ص ١٤٤.

(١٨) الاسلام من مبادئه التأسيسية للدكتور محمد غلاب ص ١٥٦.

(١٩) الآية ١٩١ السورة ٢

(٢٠) تحصيل السعادة ص ٤٤ - طبع الهند.

(٢١) رسائل ابن سينا في الحكمة والطبيعات ص ٣.

(٢٢) يقول الأستاذ العقاد عن التصوف الاسلامى الذى يعتبره أكثر

العلماء جزءا هاما من الفلسفة: "و لكن التصوف في الحقيقة غير دخيل في العقيدة الاسلامية، لانه كما قلنا في كتابنا عن أثر العرب في الحضارة الأوروبية: مبثوث في آيات القرآن الكريم، مستكن بأصوله في عقائده الصريحة، فالمسلم يقرأ في كتابه "ليس كمثله شئ" وهو السميع البصير "فيقرأ خلاصة العلم الذى يعلمه دارس الحكمة الالهية. ويقرأ في كتابه" نفروا الى الله انى لكم منه نذير مبين" فيعلم ما يعلمه تلاميذ المتصوفة النوذيين حين يؤمنون بأن ملابسة العالم تكدر سعادة الروح، وأن الفرار منه أو الفرار الى الله هو باب النجاة. و يقرأ في كتابه: "ان الله هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شئ عليم."، "و كل شئ هالك الا وجهه"، فلا يزيده المتصوفة الا التفسير حين يقولون: ان الوجود الحقيقى هو وجود الله وأنه أقرب الى الانسان من نفسه لانه قائم في كل مكان يصل اليه كل كائن "وان من شئ الا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم." (الفلسفة القرآنية ص ١٥٥)

(٢٣) الحضارة العربية لجاك "س" ريسلر- ترجمة غنيم عبدون ص ٢١٢

(٢٤) نفس المصدر ص ٢١٣

(٢٥) فصل المقال ص ٢

(٢٦) كتاب الكندى الى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى ص ٨٢-٨٣

(٢٧) يقول الدكتور محمد غلاب: "إذا نظرنا الى النهضة العربية ألفينا ترجمة الآراء والنظريات الاغريقية ثانيا عوامها الأساسية الهامة، اذا اعتبرنا أن العامل الأول هو القرآن الكريم." ص ١٣ من كتاب الخصوبة والخلود لـ فلاطون في انتاجه للدكتور محمد غلاب،
(٢٨) ص ١٥ الخصوبة والخلود لـ فلاطون في انتاجه للدكتور محمد غلاب.

(٢٩) يقول برتراند رسل: "ليست الفلسفة العربية بذات خطر من حيث أصالة الفكر، فرجال كابن سينا وابن رشد لا يزيدون في جرهم على شراح، و اذا أطلقنا القول على وجه التعميم، فلنا ان آراء الفلاسفة المصطبغين بقدر وافر من الروح العلمية مستمدة من أرسطو و من أتباع الأفلاطونية الجديدة في المنطق والميتافيزيقا، وهي مستمدة من جالينوس في الطب، و من مصادر يونانية وهندية في الرياضة والفلك، و كذلك نرى الفلسفة الدينية عند المتصوفة مزيجا من العقائد الفارسية القديمة، و قد أبدى المؤلفون باللغة العربية بعض الأصالة في الرياضة والكيمياء - و أصالتهم في الكيمياء انما جاءت نتيجة عرضية لأبحاثهم في استخراج الذهب من المعادن الخسيسة: فقد كانت المدنية الاسلامية أيام مجدها تدعو الى الاعجاب في الفنون و في كثير من الأساليب الفنية، لكنها لم تبين شيئا من القدرة على التفكير التأملي المستقل في الأمور النظرية. فأهميتها التي لا ينبغي أن يقلل من شأنها هي أهمية الناقل، ذلك أن العصور المظلمة توسطت الطريق بين المدنية الاوروبية القديمة و الحديثة." تاريخ الفلسفة الغربية لبرتراند رسل، الجزء الثاني، ترجمة زكي نجيب محمود.

(٣٠) سنوضح هذه النقطة و سنناقشها فيما بعد

(٣١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام للدكتور سامي النشار ج ١ ص

١٦٨ - ١٦٩

(٣٢) نفس المصدر ج ١ ص ١٦٩

(٣٣) المعرفة عند مفكري المسلمين للدكتور محمد غلاب ص ٣٢٨.

(٣٤) الرد على المنطقيين لابن تيمية ص ١٤-١٥ طبع الهند.

(٣٥) الا أن السيد الدكتور يخرج هذه الطوائف من دائرة الفكر الاسلامي، فيرى أن الذين تأثروا بالفكر اليوناني هم خارجون على الاسلام مثل هذه الطوائف و مثل فلاسفة الاسلام المشهورين، و لكننا نرى أن أحدا لا يملك إخراج هؤلاء، عن الاسلام و عن دائرة فكره بعد أن كانوا يعتبرون أنفسهم من الأمة الاسلامية.

- (٣٦) نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام، ج ١ ص ١٧٠
- (٣٧) نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام ج ١ ص ١٦٠
- (٣٨) نفس المصدر السابق ج ١ ص ١٧٠
- (٣٩) نفس المصدر السابق ج ١ ص ١٧٠
- (٤٠) نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام ج ١ ص ٢٢
- (٤١) نفس المصدر ج ١ ص ١٣
- (٤٢) من أمجاد مفكرى المسلمين للدكتور محمد غلاب ص ٨٨
- (٤٣) الحضارة العربية تأليف ما . س . ريسلر ص ٨٣
- (٤٤) الحضارة العربية لجاك س . ريسلر ص ٢١٣
- (٤٥) يقول الدكتور محمد غلاب في هذا الصدد ما نصه: "إذا عرفنا كل هذا وتبيننا أن هذه الفلسفة الاغريقية العظيمة انما هي وليدة الاساطير الشرقية ، أو هي تطور الوثنية على حد تعبير "أوجوست كونت" ، نقد و جب على كل باحث في الفلسفة أن يبدأ ببحوثه بفلسفة هذه الشعوب الشرقية ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي تكون منها الجسم المراد درسه من جهة ، ولكي يصل أوائل حلقات السلسلة العقلية بأواخرها من جهة ثانية." (الفلسفة الشرقية للدكتور محمد غلاب ص ١٧)

- (٤٦) الحضارة العربية لجاك س . ريسلر ص ٢١٤
- (٤٧) الحضارة العربية لجاك س . ريسلر ص ١٠٧
- (٤٨) نشأة التفكير الفلسفي في الاسلام ج ١ ص ١
- (٤٩) نفس المصدر ج ١ ص ٢
- (٥٠) شرح العقائد ص ١٣